صور ضائعة من بغداد القديمة

فؤاد طه محمد

اختفت صور كثيرة من بغداد القديمة، ففي السوق أوشكت الأسواق المسقفة أن تضيع في زحمة البناء العصري، وبادت الكسلات وأشغال المناسبات مثل الساس، وليلة المحية، والدوران بالطفل الوليد في حارات بغداد، وجلوس المرأة على دكة الجامع ليلة الجمعة عند التمجيد لسماع الخيرة من أفواه الماشين، والتفاؤل بمعركة العصافير، وانمحت من خارطة بغداد آثار نفيسة لم تستطع الحفاظ عليها مثل بنجة علي وحمام تاجه وقصر المجيدية وخان الألمان ونهر المسعودي ودار ابن الجوزي ومقبرة أم الهلاهل وسواها. ونحن نقدم هنا خمسين صورة من بغداد القديمة تتمثل فيها بعض المعالم المختفية والشخصيات الشعبية ليحتفظ هذا الجيل بذكراها بعد أن اندرست أو كادت لتظل صورتها في الذاكرة الشعبية:

١.أبو أبيض وبيض: كان يقف بعربته الكبيرة في ركن من أركان الطرف وقد رتب ما لديه من بيض وطماطة وخيار وخضراوات ترتيباً أنيقاً يدل على حسن الذوق والتأني في الشغلة، اختفت صورته وانحسر ظلها أمام المطاعم الكبرى والأكلات الجاهزة.

٢.أبو بيض الكلك: كان يحمله بسلته التي توجها بقماش ملون كأنه الهودج، تراه يدور في الأزقة والدرابين وهو يصيح على بضاعته:

بيض الكلك على وطار
وكر أبيت المختار

فينطلق الصبية صوبه متلذذين بهذا اللون المصبوغ من روح السكر وبأشكاله الهرمية والمخروطية الحسان.

٣.أبو الفرارات: وهي المراوح الورقية الملونة كان يصنعها نفر من نزلاء الخانات يترددون بها على أطراف بغداد فيقتنيها الصغار بالفلسين والأربعة فلوس، ومن هنا جاء مثلهم (بايع فرارات بخبز يابس) إشارة إلى دفعهم بعض الفرارات لقاء بعض الطعام سداً للحاجة.

٤.أبو الربابة: كان يتردد على أبواب الدور فيجلس عند الدكة عازفاً بربابته، مرسلاً من وترها لحناً حزيناً يصاحبه بصوته يستجدي الناس فيجود عليه المحسنون باليسير من النقود، وأبو الربابة لا يجد من يزوجه بنته إلا من صنعته. وإلا فهو فنان بدائي جوال لا يستقر في مكان، يمتدح السخاء وأهله، ويذم البخل وأهله.

٥.أبو الحياية: وهو الحاوي، كان يتردد على مناطق مخصوصة ببغداد منها الجوبة وفضوة قره شعبان من الرصافة، ودرب أبو علي والشيخ علي والوكفة في الكرخ مستدراً إعجاب الناس بما يعرضه عليهم من تلك الأفاعي، يصاحب عرضها بعض الأدعية وتعويذات الدراويش منها:

ليش يا بن آدم طغيت عاقبة ما حسبيت

والأفاعي تتلوى بين يديه والعشرات من الفلوس تنهال عليه، وفي آخر العرض يجمعها ويعيدها إلى كيسه ليخفيها في صدره.

٦.أبو الهبيط: كان يجلس على قارعة الطريق وبين يديه (نجانة) من صفر قد غطاها بقطعة قماش حوت في داخلها كومة من الكروش يقطعها بسكينة ويقدمها للطاعمين مع رغيف من الخبز لقاء مبلغ زهيد، ومنها قالوا للمحروم: (تعيط متعيط ما ضوكك هبيط) إشارة إلى الحرمان.

٧.أبو البخور: كان يحمل حزم البخور ويطوف بها في أسواق بغداد مردداً: الليلة جمعة والصلاة على النبي..

يطرد الشر البخور
عنبر، مسك يا بخور

ومن أنواعه الهندي والجاوي وبخور ملايكة، من أمثالهم:

واحد يبخر وعشرة تفسي
الما متعلم ع البخور يحترك ط....

بخري لي وانشرلج، وقد قل الإقبال عليه إلا في المساجد والمقابر وأضرحة الأولياء.

٨.أبو بيع: من أعمال اليهود، حيث كان اليهودي يتجول في محلات بغداد منادياً بأعلى صوته: (سترة عتيقة للبيع.. سكملي عتيق للبيع.. الخ) وربما اقتنوا بعض سقط المتاع من الألبسة والعتائق لقاء بعض الأواني الصيني يدفعونها لربة البيت فتتخلص بذلك من الأسمال وتكسب بعض الاواني.

٩.أم الطوش: وهو التمر قبل أن يصير خلالاً حيث اعتادت بعض الفقيرات العجائز على بيعه أكواماً أو التردد به على البيوت والدوران في الأزقة، وكثيراً ما تصحب أم الطوش إحدى بناتها الصغيرات أو أبنائها الصغار، وآخر طواشة شهدتها كانت سنة ١٩٤٥ في محلتنا الشيخ صندل وهي عمياء تعرف بـ(بدرية أم الطوش).

١٠.بابا درويش: من الزهاد الهائمين على وجوههم يعرفون بالمرقعة التي يلبسونها والمخلاة التي يضعون فيها المشط والطاسة والمرآة والمكحلة والسواك، وإليهم أشارت المقولة البغدادية: حسبتك درويش، طلعتلي حنفيش، وكان يردد في بعض المآتم العلوية قول العدادات:

علينا يا علي... علي
إمام الدرويش... علي
إمام الشهدا.... علي
وأصلي وهدى.... علي

١١.بائع العرق سوس: كان يحمله بمشربته النحاسية الصفراء وقد كساها بقماش مبلل وحزمها ببعض الكؤوس وحناها إلى إحدى الجهتين، وكان للعرق السوس رواج عظيم في أسواق بغداد.

١٢.الجزوة: مصيدة أو فخ ينصب في بعض الأماكن الخالية ويرمى حواليه بعض الحبوب فتستدرج إليه الطيور لتقع في الفخ، وقد كان بعض شباب الكرخ يعمدون إلى نصب عدة جزوات عند مدخل الجسر الخشبي القديم (جسر الكطعة) حين ترفع الجسارية الوسطى لمرور السفن ويتوقف عبور العابرين.

من أقوالهم:

ناهبلي جزوة
من هالجوزة ميطلع طير

١٣.الجعيدة: هو كبير الحرامية، كان يجمعهم خلف سور بغداد أو في المقابر أو البساتين لينظم عملية السطو على بيوت الناس، وكان ذلك أبان فقدان الأمن في بغداد يوم كانت الأمور بيد الولاة الغرباء عنها.

في ذلك قالوا: (حصة الجعيدة حصر) و (صيروتي ولتصير جعيدة)، وقالوا:

بليلة الظلمة جعيدة نطرك الكاع البعيده

وقد زال ذلك والحمد لله وانحسر الظلام عن مدينة السلام.

١٤.الجرخجي: هو الخفير الليلي، كان يتسلم أجور حراسته من البيوت فالبيت ذي الطابقين يدفع ضعف البيت ذي الطابق الواحد، وقد نظمت أمانة العاصمة عمليات الحراسات الليلية من زمن بعيد. وفي بغداد لعبة تعرف (حرامية جرخجية) اختفت هي الأخرى.

١٥.الجشمجي: وعمله هو تنظيف البالوعات والمرافق، وكان يؤدي ذلك بوسائل بدائية جداً ثم يحمل ما ينتزحه على ظهور الحمير لينفيها خارج البلدة، وفي جانب الرصافة إلى اليوم دربونة يقال لها (الجشمجية) إذ لهم أماكن مخصوصة يتجمعون فيها ويتداولون مشاكل العمل، وهم فئة عرفت بالصبر على قسوة الحياة.

١٦.الحائك: اختفت الجومة وانتهى دور (النيار) وآلت أدوات الغزل والحياكة من نبوب ومكوك ومغزل وسوبس إلى الاختفاء وكان للحياك سوق رائجة في بغداد وهم أصناف كثيرة تتوزع البيوت والخانات، قالوا:

عين ابن الحايج على بنت السلطان
و: جومه يم جومه والرزق على الله.
و: أمل جسومة بخراطة الجومة، يضرب للفقير الذي يتأمل بقايا الشيء الذي لا تحصل منه بقايا.

١٧.الحجام: كان الحجام أو الفصاد له دور في حياة الشيبة في القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، لا يمكن نكرانه، فهو بمشرطه ومحجمه يؤدي دوراً صحياً يشكرونه ويسعون إليه، وفيه قال قائلهم:

يتعلم الحجامة بروس اليتامى
وقد انقرضت، وفي الكرخ بيت يعرف بيت الحجامة.

١٨.الحرامي: وكانوا يطلقون عليه اسم (الواغش) بالتركي وله في قلوب الناس رهبة، حتى إن أطفال البغداديين يتصورونه مخلوقاً مخيفاً بعيداً عن الصورة البشرية، له رهبة تفوق رهبة الطنطل قالوا:

لوما الوقي ما سطا الحرامي
والوقي هو دليل اللص على متاع البيت الثمين.

وقالوا: مثل نار الحرامية لأنها تكون خافتة
وقالوا: مثل الحرامي يخاف ويخوف

وقد اختفت صورته تقريباً من الأذهان وحفظت ألف ليلة وليلة الكثير من حكاياهم.

١٩.الحفافة: كان لها عصر ذهبي فهي إضافة إلى عملها في تنميص الوجه من الشعر تعتبر المستشارة والناصحة والخاطبة والمؤتمنة على أسرار البيوت. وقد أفل نجمها بظهور الصالونات الحديثة. وقد ضربوا مثلا في تقابل الأصناف فقالوا:

(الحفافة تلوم النتافة). و(متعرف هم الحفافة إلا النتافة).

٢٠.الحلاق: لم تبق من صورة ذلك الحلاق البغدادي القديم أية آثار، فحقيبته التي كان يحملها ونطاقه المزين بالسكاكين وما كان يؤديه من وظائف جراحية وعملية قلع الأسنان وختان الصغار وتزيين الشعر كل ذلك يجعل له أهمية اجتماعية في وقته:

قالوا: يتلخط على سير المزين، وهو تمثيل للبؤس المتناهي، والحس مسني والدبات متهني وهو يصور عيشة الكفاف مع الأمان من الشر.

٢١.الحياص: وهو حائك الحيص، ضرب من الأحزمة ترصعها نقوش الفضة والخضرم وأم سبع عيون تتوسطها قبة فضية ومنها أنواع نادرة غالية الثمن، وفي بغداد إلى وقت قريب كان سوق الحيص لها شهرة وإقبال من الناس. ومن أغانيهم:

شفت لابس لي حياصه لكيته بدرب الجصاصة
والكذله تلعب بالهوا
يا ريتنا غشي سوا

٢٢.الختمة: وهو حفل تخرج الصانع من الكتاب لحفظه القرآن الكريم وإتقان لآياته بالتهجي والروان، وهما الطريقتان الشائعتان في كتاتيب بغداد. وكان للختمة رسوم خاصة حيث يحاط الصبي بأقرب أصحابه إليه فيسيرون في الطرف وهم يرددون (الحمد لله الذي تحمدا) وأهل الصبي يفرقون الحلوى ويطعمون الطعام ويتفضلون على الملا والخلفة وأيتام المكتب بالكثير من الخيرات، فإن كانوا موسرين ذبحوا وأولموا.

٢٣.الخياط فرفوري: عهدناه يتجول في الأزقة ينادي على صنعته ربات البيوت فيخرجن إليه حاملات بأيديهن القواري والمواعين فيجلس عند باب الدار يثقب بإزميله الثقوب ويربط القطع المتكسرة ويعمل الأقفاص لشد أجزاء القوري ثم يعمد إلى لحم ذلك كله وترصينه بمادة النورة مضافاً إليها صغار البيض، وقد انحسرت صورته بعد شيوع استعمال المعادن والمواد الأخرى وغزو المواد البلاستيكية للبيت.

٢٤.الدلال: كانت مهنته الإعلان عن بيع الدور والبساتين وإذاعة خبر الدورات العسكرية في المدرسة الحربية ليقوم الآباء بتسجيل أبنائهم كما كان يعهد إليه بالمناداة على الأطفال الضائعين وتعميم أوصافهم والإرشاد إلى مواطن سكناهم، وبعض الدلالين كان يضطر لاستخدام الحمار، قالوا في أمثالهم:

دلال وضاع زماله وكع الحيال على بيت الدلال

وقالوا: (كلالة) هدومج بيد الدلاله، دعاء عليها بالموت.

٢٥.الرواس: لم يعد لهذه المهنة من أثر، فقد كان الرواس يعمد إلى شي رؤوس الغنم بالنار بعد طبخها بالقدر الكبير تمهيداً لتقديمها أمام الطاعمين، اشتهر بهذه النسبة العلامة الزاهد محمد مهدي بهاء الدين الرواس دفين السيد سلطان علي في رأس القرية.

من المحرر

الفولكلور والحقول الأخرى

تنضج دراسات وبحوث وأعمال الحقول المعرفية الأخرى في الجوانب الإنسانية والعلمية بالاعتماد على الحقول الفولكلورية المتعددة ودراسة أبنيتها قبل الدخول في صلب هذه الموضوعات.

فلا سبيل إلى دراسة اللغة دون اعتماد اللغة الشفاهية وتطورها، ولا سبيل لدراسة علم الأصوات دون إدارك لطرق التلفظ الشعبية من إدغام وحذف وعنعنة وكشكشة، ولا بد لدراسة أزياء مجتمع ما من الرجوع إلى الأزياء التقليدية وتطورها، وفي علم الصيدلة بات من الضروري دراسة علم الأعشاب وطرق التعشيب الشعبية القديمة، وفي المسرح وعروضه التقليدية والكلاسيكية يتخذ الدراماتور والمخرج من بيئة العرض مراجع لتأسيس عرض أفضل على صعيد الأزياء والإكسسوارات وعمارة المشاهد، وقد اعتمدت القصة والرواية الحديثة في كثير من مرجعياتها على المعتقدات الشعبية والسير والوقائع فيما اعتمدت مهمة مثل (اسم الوردة) و(العطر) و (رجال الصفر) و(أرض ثمارها ذهب) على مرجعيات فولكلورية في بناء الأحداث وتفاصيل المادة الدرامية، وتستطيع القول باطمئنان إلى أن الانثروبولوجي كبحوث ميدانية قد انطلق من الانثول\وجي وبالتالي من الثقافة الشعبية لبناء بحوثه، وقل ذلك عن كثير من العلوم والصنوف المعرفية التي منها علم الآثار وعلم الرياضيات، فضلاً عما يراه العلم الحديث من أهمية دراسة التاريخ الشفاهي الشعبي كمدخل لدراسة التاريخ الحقيقي غير الرسمي السلطوي للشعوب.

لقد غدا البحث الفولكلوري مدخلاً أساسياً ومفتاحاً لإنضاج البحوث في العلوم الأخرى، ومن هنا نشأت أهمية دراسته والاهتمام بتفاصيله وبنظرياته.

(القراية) والمسرح النسوي الشعبي

علي مزاحم عباس

أحسب ان أياً من الباحثين في الدراما الشعبية (الفولكلورية) لم يلتفت وهو يدرس التعزية أو شعائر العزاء الحسيني، إلى (القراية) بصفتها أحد ضروب الطقوس التشخيصية وضرباً من التعزية أو الندب المأساوي الذي يؤدى في الأيام العشرة الأولى من شهر محرم الحرام، وفي موازاة أيام التعزية وبقدر كبير من الجدية أو القدسية، والقراية تقيمها النساء فقط ويسمح فيها باصطحاب الأطفال الصغار بشرط الالتزام بالهدوء واحترام مهابة المناسبة. وهي من مظاهر التجسيد المأساوية المؤلمة وعلى النقيض من الملهاة المرتجلة ذات الطابع الهربي. وتقام القراية - عادة - على مدى عشرة أيام يمكن اختصارها إلى خمسة. وفي هذا الطقس الاعتقادي ترتدي النسوة المشاركات ثياب الحداد. وتسبق هذه الفعالية تحضيرات معينة كنصب الرايات على سطح المنزل، والاتفاق المسبق بين صاحبة المجلس و(الملة) على الأجور وساعة البدء ومكانه. وتفرش باحة البيت على شكل مربع أو دائرة غير مكتملة حيث يوضع كرسي مرتفع مجلل بالسواد تتخذه الملة منبراً. وتعلق على الجدار قطعة قماش سوداء خطت عليها كلمات مناسبة مثل: يا حسين، يا شهيد، يا مظلوم، وقد يعلق سيف أو أكثر.

وتوضع السجاير أمام النسوة اللواتي يتقاطرن من غير دعوة فيجلسن على الفراش ويأخذن بتبادل الأحاديث قبل أن تنبه الملة إلى الشروع بالعزاء.. وقد ارتدت ملابس مميزة مثل (الهاشمي، العباءة التي توضع على الكتف، والفوطة، وتردد عبارة (وي يا حسين) بنغمة حزينة طويلة، وبيدها قصائد مخطوطة مغطاة بقماش أسود أو أخضر ثم تقرأ أشعاراً بالعامية بطريقة مثيرة لعويل النساء الجالسات جاثيات على الركب ويأخذن باللطم والصراخ)، فيضربن على الوجوه أو الصدور أو الكتفين ثم تعقب هذه الحركة استراحة قصيرة يرش على الحاضرات ماء الورد.

وتتصف الملة بمؤهلات في الإلقاء الصوتي وبقدرة على الشد والتأثير، وحضور وتقوم المساعدة بتولي جزء من الندب، يعقبه ترديد مقاطع من الرثاء بعد تلقين النساء عليها عندها تشتد الحماسة، فتنفرد واحدة لتدخل إلى الوسط وهي ترتدد المقاطع وتدخل أخرى.. وتخفف الملة من الحماسة فيتوقف الجولان والترديد.

في اليوم الثامن يوزع (خبز العباس) وهو عبارة عن رغيف خبز أو نصف رغيف يوضع داخله قليل من الخضراوات (الكرفس، الكراث، الرشاد) كما يقدم مشهد يمثل (عروس القاسم) هيئت له صينية وضعت فيها أغصان من الآس والشموع والحلويات والبخور وماء الورد. وتقوم إحدى الحاضرات بدور العروس دون زينة، ويسدل على وجهها خمار أبيض، ثم تقوم امرأة أخرى بدور العريس وهي ترتدي زياً رجالياً فيزف الإثنان دون زغاريد بل يتعالى البكاء والعويل فثمة مفارقة مؤلمة يمثلها زفاف شاب مقبل على الموت في اليوم التالي. وتختتم القراية في اليوم العاشر من محرم.

إن كلاً من التعزية والقراية قد حصرتا المناسبتين عند غاياتهما الطقوسية والدينية ولم تتوسع إلى أداء وظيفة اجتماعية فهي ترقى إلى مستوى الظاهرة المسرحية. وبقي الطقسان يمارسان لعشرات السنين في حدود معينة لا يخرجان عليها. وبرغم الاختلاف المحدود في الممارسة إلا إنهما ظلا محافظين على جوهرهما بفعل طابعهما الطقوسي المقدس.

ستديو ثقافة شعبية

قلعة اربيل (العراق)

هندية حمراء من قبائل (ماندان) في اريزونا (الولايات المتحدة)تقوم بالحياكة على الجومة ورعاية الاطفال

دمية امرأة من الخشب مزينة بقطع من النحاس الاحمر والفضة من جمهورية الغابون محفوظة في متحف الاثنولوجي في نيويورك.

مكتبة

المسبحة تراث وصنعة
تأليف/ محمد الراشد - د. إحسان فتحي

فصول ستة بـ٢٣٢ صفحة أصدر المؤلفان هذا الكتاب عن المسبحة تضمن الفصل الأول، معنى المسبحة وشكلها واستخداماتها والمناطق التي انتشرت فيها ويبحث الفصل الثاني في مواد المسبحة وأنواعها ويتطرق الفصل الثالث إلى المسابح المصنوعة من الأحجار الكريمة ويدرس الفصل الرابع استخدام حجر الكهرب في صناعتها ويتناول الخامس استخدام المواد الشائعة في صناعتها مثل الصندل والسيراميك والعظام وغيرها وفي الفصل السادس يبحث الكاتبان في أسماء المسابح وأغراض استخدامها. صدر الكتاب في عمان ١٩٩٩.

الطب الشعبي في الخليج
تأليف/ د. نبيل صبحي حنا

عن مركز التراث الشعبي لدول الخليج صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٠ ليغطي مساحة واسعة من ممارسات الطب الشعبي في الخليج العربي وأنواع الأمراض وعلاجاتها الشعبية بطريقة تفصيلية تسمح لباحثي التراث الشعبي والمتخصصين في فروع علمية أخرى كالطب والصيدلة والكيمياء في إجراء دراسات تكشف عن جدوى استخدام هذه الممارسات لهذا يأتي الكتاب متفقاً مع الاتجاه العلمي السائد الآن وهو تعاون التخصصات العلمية المختلفة في دراسة الظاهرة الواحدة وهو الاتجاه الذي يدعو إلى ترسيخ العلاقة بين المهتمين بدراسة الفولكلور وبين غيرهم في المجالات الأخرى.

التصوير الشعبي العربي
تأليف/ د. أكرم قانصو

ضمن سلسلة عالم المعرفة بالكويت صدر للدكتور أكرم قانصو هذا الكتاب ليضيف الجديد إلى كتابات سعد الخادم وغيره فقد درس قانصو سر ماهية التصوير الشعبي وتاريخه وعلاقة التصوير بالفنون الشعبية وتاريخ التصوير الشعبي والخامات المستخدمة في التصوير ثم مصادر الرسام الشعبي الثقافية من عادات وتقاليد ونوادر وسير شعبية ومعتقدات وقد ألحق المؤلف بالكتاب ملاحق متعددة منها ملحق بأسماء المراكز الشعبية في العالم العربي وملحق آخر بالألوان لمائة لوحة شعبية وملحق التعليقات على الصور والرسوم، ٢٨٤ صفحة - ١٩٩٥.